بسم الله الرحمن الرحيم
جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية بسوهاج
الريف المصري في وجدان
الشعراء المعاصرين
بقلـــــم:
دكتور/ سهام سيف الدين علي
مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات بسوهاج

"مقدمـــة:"

للريف في مصر هدوء سابغ وسحرٌ فياض، وسمات تميزه وتنأى به عن ضجيج المدن وازدحامها بالسكان، وصخب المركبات من شتى الأنواع، بالإضافة إلى سُحُب الدخان التي تتصاعد إلى أجوائها فتلوّث الهواء، من (عوادم) السيارات ومداخن المصانع التي تكثر بها، وكذلك بما يثور من أتربة المحاجر والمناجم، والكثبان الرملية التي ينقلون منها مواد البناء، لتشييد المساكن والأبنية، لاستيعاب أعداد السكان المتزايدة، الوافدة من شتى الجهات، التماساً للرزق في المتاجر والأسواق والدواوين العامة والخاصة.

على حين احتفظ الريف بفطرته النقية، واعتدال مناخه وحركته التي تجعلك تكاد تنصت لحفيف الأغصان، ورفيف الأقحوانية في نداهما، حيث تهتز الأرض بالنبت المخضل، وتزهو وتتزين بالخضرة والنضرة التي تتبدى بين عرائس المروج، وثمار الحقول، وبدائع الزهور والرياحين، في الحدائق والبساتين، وسط جو يتسم بوداعة أهل الريف، ونقاء سجيتهم، وصفاء سريرتهم.

ومن ثم، فلا غرو أن ينشأ بين ظهرانيهم شعراء أفذاذ، شربوا من منابعهم، فكانوا أقدر على التحليق والتأمل في محاسن الكون من حولهم حتى أمكنهم التعبير عن روعة الليلة القمراء، والروضة الغناء .. وترجيع الغناء للعنادل، والكراوين بما يشجي ويطرب،

وكما يقول الكاتب عباس العقاد في تحديده لمفهوم: الطبيعة الفنية التي لا يكون الشاعر شاعراً إلا بتوفر نصيب وافٍ منها: (وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه، شيئاً واحداً، لا ينفصل فيه الإنسان الحي عن الإنسان الناظم، وأن يكون موضوع حياته، هو موضوع شعره، وموضوع شعره هو موضوع حياته، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه، يخفي فيها الأماكن والأزمان، ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة، مما تتألف منه حياة الإنسان)[١].

فالطبيعة هي مصدر إلهام الشاعر ووحيه منذ أقدم العصور الأدبية، خاصة عندما يتأبى عليه الشعر فيخرج إليها ويندمج معها، كما سئل في ذلك كثير عزة: كيف تصنع يا أبا صخر إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال: أطوف على الرباع المخيلة، والرياض المعشبة، فيسهل عليَّ أرصنَه، ويسرع إليَّ أحسنه[٢]. وكما يقول الأستاذ الدكتور محمود جمعة: إن شعر القرية وثيق الصلة بشعر الطبيعة، فما القرية إلا مظهر من مظاهر الطبيعة في جمالها الآسر، وسحرها الأخاذ وبهاء منظرها، حيث الفضاء الواسع الذي لا يحيط به البصر[٣]، وحيث {النخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون الرمان متشابها وغير متشابه}[٤].

1- الديوان للعقاد والمازني، ص ٢٠/٢٤ط.
2- العمدة لابن رشيد ج ١، ص١٦، ط/ الخامسة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١.
3- القرية في شعر محمود حسن إسماعيل، أ.د. محمود جمعة أمين مجلة كلية الدراسات بسوهاج، العدد الرابع عشر ١٩٩٩، ص ٤٩٢.
4- سورة الأنعام الآية (١٤١).

وصفوة القول: إن الريف قد منح إيحاءه لبعض الشعراء المبدعين الذين كان الريف مسقط رأس كل منهم في جنباته، فشربوا من منابعه، وصدروا عن آماله وآلامه بتوق ووجد في قصائدهم عنه .. والتي تدل على دوام التفكير فيه، والالتفات إليه إذا شط بهم المزار، وأصبحت الحال غير الحال، وكأن شأنهم عند مفارقتهم له لسبب أو لآخر، شأن الشاعر العربي القديم الذي قال:

تمتع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار

أو شأن ما يحتويه البيت التالي[1]:

خذا الزاد يا عينيَّ من نور وجهه

فما لكما فيه، سوى اليوم، منظر

الريف المصري في مرآة الشعر العربي المعاصر:

وعن تأثر شعراء الريف بما يجري فيه وقدرتهم على التعبير عنه أحاول قدر المستطاع إعطاء الريف المصري حقه من التنويه والإشادة به من خلال عدسات بعض فحُول شعراء الريف المجلين، وأبدأ بـ:

١ ـ الشاعر "أحمد الكاشف"، وهو يصف فلاح مصر فيقول[1]:

1- هذاالبيت لشاعره جارية، فيما روي في الاغاني لأبي الفرج الأصفهاني، أنها قالته تودع مولاها عند مفارقته لذهابها بعيداً عنه.

إذا استثبتُ في الدنـــيا حبيبًا
فخـــير أحبّـتي فـلاّحُ مصـراً

كــريم يمــلأ الــدنيا ثــراءً
ولا يلقى سوى الإجحــاف أجراً
فقير .. ما أراهُ شـكا أفــتــقـاراً
ـولو يُجزَى عـلى تعب- لأثرَى
فمحراثٌ، يشــق الأرض، عندي
ـويخرج من ثراها الخصب تبراً-

كَسَيفٍ .. في يـد الجـندي، لاقـى
بـه جيشـاً .. وحِصناً مُشمَخِراً

كما يصف الشاعر نفسه (الفلاحة حاملة الجرّة) بقوله(٢):

حامــــلة الجرة تمشي بها
منـيرة الطلعة وَسْط الزحامُ

كرايـةٍ حمــراءَ معقــودة
لقائـــدٍ ســار بجيش لُهام

1- ديوان أحمد الكاشف، جـ١، ص ١٠٤.
2- المصدر نفسه، ص ١٣١.

لولا اعتدال العنق من تحتها

وهزّة العطـــف بها والقوام

أرقتْها من ثقلـــــها مشفقاً

ولو شكا .. أهلك حَرَّ الأوام[١].

إلى أن يخاطب هذه الفلاحة، مداعباً، ومتغزّلاً:

يـا مَـيُّ .. ما أغناكِ عن جَرَّةٍ

لو شئت كانت في عيون الأنام! وأنت لـــو حَملتِـــها (عُمدةً)

لنال تشريفاً .. وأعْـــلى مقام

.. عساك تبغين بها، رأفـــــةً

يا ميُّ: إرواءَ صَوادي الغـرام[٢]

. . .

٢- ثم نقرأ للشاعر محمد عبدالمعطي الهمشري، قوله في وصف قريته في المساء[٣]:

1- أي أراق ما الجرة – حر الأوام: شدة الظمأ.

2- صوادي الغرام: أي العطاشا.

3- الشعر العربي المعاصر، (١٩٠٨ – ١٩٣٨). د. الطاهر مكي، ص ١٣٧.

لقد رنقْت عيْنُ النهار وأسْدَلـــــتْ
ضفائرها فوق المروج – الدياجـــرُ

وقد خرج الخفّاشُ -يهمس في الدجى
ودبّبَ على الشط الهوام النوافـــــر

وقامت من الجميز تصرخ بُومـــــةٌ
على صوت هِرٍّ في الدجى يتشاجرُ[١]

وفى فترات ينبح الكلب عابســـــاً
يجاوبه ذئب من الحقل خـــــادرُ

وللهمشري قصيدة أخرى اتخذ لها عنواناً: أغنية الفلاح المصري لجاموسته الصغيرة المحبوبة) يقول فيها[٢]:

يا سحرُ خَطْوكَ إذ تمشين تابعـــــةً
الصبح أمك نحو الحقل في مَـــرَح

تتلو عليك فتاة النيل غنوتهـــــا
وتعبر القنوات الخضر في فـــــرح

1- الروائع جـ١ ص ٢٩/٢٨ ،وينظر: محاضرات في الشعر العربي، د. محمد مندور، الحلقة الثالثة، ص ٧ وما بعدها ط ١٩٥٨، الهر: القط.

2- ينظر: م. ع الهمشرى/ تأليف الشاعر صالح جودت، ط سلسلة الهلال، عدد ٢٨٨ – ديسمبر ١٩٧٤م، ص ١٦٤/١٦٣.

ثم يعمد إلى تغير قافيته بقوله:-

إذا سمعتك .. طاف الريف مُطـرداً
أمام عينيّ ... فليلقاني وألقـــاه
أرى الحقول، وأرعى الريف عن أمَم
شمس وظل،وأشجار، وأمـــواه[1]
أحْرَى بزهر الرُّبا أن يغتدي أكُـلاً
وأن يكون، على الريحان، مَرْعــاك
أدعوك جاموستي؟ لا .. أنتِ صاحبتي
بل أنتِ فاتنتي .. يا حُسن مــرآكِ

ثم يختتم قصيدته، بقوله:

لو أن لي ريشة في الفن عالية
تهتز بالوحي في دنيا التصاوير
إذن رسمتك في مخضلةٍ أبـداً
فيحاء تضحين في ظل النواعير

٣- ونعرض مظهراً آخراً من مظاهر الريف للشاعر مصطفى عبداللطيف السحرتي، يصف فيه مظاهر الحياة من حوله ببلدته "ميت غمر"، ومن طريف شعره في هذا الجانب قوله واصفاً الهدهد وهو يلتقط الدود في الحقل:

1- عن أمم: أي عن قرب.

يدق الأرض بالمنقا ر كالفلاح بالفأس
ويحفر ثغرة فيها ليلقط باطن الغرس
وأصوات العصافير مراح اللب والحس
ونور الزهر مؤتلق يضيء جوانب النفس

إلى أن يقول:

هي الأحداث صادحة بكل روائع الحدس
فدعنا في مجاليها نقيب مشاكل الرأس
وأنسى في مرائيها هموم اليوم والأمس
وأحيا في براعتها سويعات بلا تعس[١]

فالشاعر صور الحياة بين أحضان الطبيعة في الريف أحسن تصوير، وقد ساعده في ذلك نشأته وسط المُروج الخضراء والحدائق، وكثرة التأمل في هدأة الريف.

****

٤- أما الشاعر إسماعيل مصطفى الصيفي فيصور لنا الفلاح وفرحته عندما أينع غرسه، فيقول في قصيدته (رفيق الأرض):

1- ديوان أزهار الذكرى، للشاعر مصطفى عبداللطيف السحرتي: ولد الشاعر في الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٢ ببلدة ميت غمر التي يطوقها النيل بساعديه من جهاتها الاربع، وهو من أفذاذ كتاب العربية العاصرين، والذي يحتل مكانة عالية في النقد الأدبي المعاصر.
- ينظر: كتاب شعراء معاصرون، ص ٢٧٧.

ملأت ثغره العريض ابتسامه واستوى قائماً رفيع الهامه[١]

وأشعت عيناه بالأفق الفرحان، أن أينع الغراس أمامه

يالها نشوة، تنضر دنياه، تداوي بسحرها آلامـــه!!

لم تزل هذه المغارس سلواه، وما زالت الحقول غرامه

***

٥- وهناك شاعر معاصر هو "فوزي العنتيل" الذي جمع مجموعة من أشعاره في ديوان (عبير الأرض) وقصائده يدور أغلبها حول الأرض وجمالها، وتأمّل في الطبيعة، ففي قصيدة "الربيع في القرية" يقول[٢]:

أنا قد عشقت الليل والأحلام في الريف الحنون

فهناك فوق الرابيات يتم ميـــلاد السكـــــون

وهناك أفراح الحقول الطافيات على الغـروب

والسنبل الذهبي كالأمواج مضفور الجيـــوب

وهناك يأتي الليل عريانا كأحلام الغـــــريب

فترف أنفاس المصابيح الهزيلة في الـــدروب

1- الهامة: الرأس

2- دراسات أدبية/ جليلة رضا، طبعة أولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص ٨٨ – ٨٩، جـ١.

فالشاعر عبّر عن الخير والبساطة والحرية تعبيراً صادقاً مجدداً، ثم ينتقل إلى ذكرياته في القرية مع رفاقه والتي لا يستطيع نسيانها، فيقول أنها:

هي ذكريات صبية مرت بعمري المجدب
زرعت بأضلاعي الحنين إلى الربيـــع المعتب[1]

وفي قصيدته (عبير الأرض) والتي تعدّ رائعة ديوانه، يمزج الشاعر الوطن بالقرية بالحرية بالطبيعة وبالماضي، وبالمستقبل، فنراه في أبياتها يقول حاكياً عن قريته:

يجتاحني ألف شوق إذا ذكرت ثراهـــا
فقد بنيت الفصون الخضراء حول قراها
وقد نقشت بقلبي أفراحها وأساهـــــا
غرست فيها زهوري فأرضعتني شذاها
وصنت فيها كنوزي فباركتها يداهـــا
أبي هناك وعمي ماتا شهيدي هواهـــا

وبعد ذلك يمتزج مع الأرض بكل ما فيها فيقول:

1- المصدر السابق، ص ٨٩ / ٩٠.

فهذه الأرض أرضي بأفقها المترامي

حقولها من أديمي وفأسها من عظامي

وفي قصيدته "نشيد النيل":

لنا نهر رقيق الخطو ضحيان الأساريـر

تدفق يسكب الأشواق في عطر الأزاهير

فيا شبابتي طيري ويا ساقيـــتي دوري

على رفرفة الزنبق في مسرجة النـــور

لنشهد موكب النوار في أعياد هاتـــور.

وعلى هذا الطراز تسير قصيدة "نشيد النيل" في صور متلاحقة خاصة حينما يقول واصفاً ما بجانبي النيل من نخيل وكوخ .. إلخ:

هنالك نخلتي السمراء في السفح تناديـــني

أوافيها فتضحك لي وأسألها فتعطيـــنـــي

أنين الفأس يدعوني إلى كوخي إلىأرضي

ومما لا شك فيه أن الشاعر "فوزي العنتيل" ممن أحبوا الطبيعة والريف حباً خالصاً وعبر عنهما في شعر عذب صادق، في كل قصيدة من قصائده الريفية.

٦- ومن الشعراء الذين أبدعوا وتفننوا في وصف الريف الدكتور الشاعر عزت شندي موسى في قصيدة بعنوان "الريف"[١] والتي تعدّ بمثابة وثيقة أودعها أحاسيسه ومشاعره نحو الريف وأهله، بحب وإخلاص، ويستهلها بقوله:

بين زهر الربى وصفو الغدير
وتهادي الصبا ونشر الزهور
قف وأنصت إلى الطبيعة تشدو
بنشيد التوحيد والتكبير
ثم طالع بين الحقول ملياً
أسْطراً خطها يراع القدير

ومن هذه الدعوة للتأمل في جمال الطبيعة يقوم الشاعر بإرشاد السائر وسط هذا الرداء الربّاني المنقطع النظير وذلك بقوله:

هذه قدرة المهيمن تبدو
أينما سرت..فاتَّئِدْ في المسير

1- ديوان مع الله ورسوله، د. عزت شندي، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٨١، ص ٢٢٥.

فتراها في البدر إذ يتجـــلـــى

في هدوء..فوق القرى والكفور[١]

وتراها في الزرع إذ يفـرش الأر

ض بساطاً من الدمقس الوثـــير[٢]

وتراها في الماء ينساب في الـرو

ض، ويجري رقراق بين الجسور[٣]

وتراها في الورود إذ يملأ الجـــو

عبيراً .. يا طيب ذاك العبـــــير

ولآلي الندى .. تزين الأزاهـــيـ

ـــرَ بعقْدٍ من النضيد النضـير[٤]

فقد صوّر الحياة الرائعة في الريف، وأظهر شغفه بالطبيعة الحية، الناطقة من حوله ويبرز محاسنها، متأملاً في المناظر الخلابة من حوله: فالبدر يتألق فوق القرى والكفور، والحقول تزهو

1- الكفور: جمع كفر، وهي القرى الصغيرة التي نسبت إلى رجال، (اللسان: جـ١٢، ص ١٢٣).

2- الدمقس: الديباج والحرير (اللسان: جـ٤ ص ٤٠٦)، الوثير: الفراش وكل شيء جلست عليه ونمت عليه فهو وثير، (اللسان: جـ١٥، ص ٢١١.

3- الرقراق: هـو كل شيء له بصيص وتلألؤ، وترقرق الماء: أي جاء وذهب، (اللسان: جـ٥، ص ٢٨٩).

4- النضيد من الشيء: ماجعل بعضه على بعض متسقاً، نضير: الناعم الذي له بريق في صفائه (اللسان: جـ١٤ ص ١٧٧/١٧٨).

بالخضرة، والماء ينساب بين الجداول والرياض، والزهور يفوح شذاها بالعبق الطيب ... الخ.

والشعراء مختلفون باختلاف أمزجتهم، ومراكزهم في الحياة، وأحوالهم المعيشية، وطبائع نفوسهم المتفاوتة، في انفعالهم بمظاهر الطبيعة[١]، وقد أطال كثير من الشعراء تأملاتهم في الطبيعة وهيامهم بها حتى نجد كثيراً منهم يصف شعوره وإحساسه إزاء ما يصفه، إلى جانب تشخيصه للطبيعة فيمنحها روحاً وحياة[٢].

ونلمس كل ذلك في قول شاعرنا بعد ذلك:

كل شيء في الريف حر طليق
تحت صافي السماء جمّ السرور

هو مهد الصبا ونبع الملـــــذا
ت .. ومغنى المَهَا وخدر البدور

فترى الكاعب الطهور تعانـــي
شظف العيش في الجهاد المرير

وتلاقي من العذاب صنوفـــاً
ثم تلقاك بابتســـام الثغـــور

1- شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، الطبعة الثانية، دار المعارف، ب. ت، ص ٨.

2- أسس النقد الأدبي: د. أحمد بدوي، طبعة نهضة مصر، ب.ت. ص ٢٧٩.

وترى الزارع الأمين دؤوبـــاً

قانعاً شاكراً .. جليَّ الحبـــور[١]

وترى الطير في الفضاء تغني

طائرات بين الربى والوكور[٢]

غاديات مع الصباح يُنقِّـــرْ

نَ ويُرشُفْنَ من ذلال نميـــر

لاعبات على الغصون مليـــاً

حائمات على ضفاف الغديـــر

فقد أعطانا الشاعر اللوحة الحية المتحركة لحياة الريف بتصوير الفلاحة الحسناء التي تعاني مرارة العيش وتلاقي ألوان من العذاب، وهي مبتسمة راضية، والفلاح الذي يعمل ليل نهار، قانعاً شاكراً. واضح السرور، والطير والزهر ..

كل ذلك صوّره الشاعر بروعة واقتدار.

٧

1- الحبور: السرور من قولهم: حبرني هذا الأمر جداً، أي: سرني، (اللسان: جـ٣ ص ١٥).

2- الوكور: هو وكر الطائر وعشه الذي يبيت فيه حيثما كان في جبل أو شجر. (اللسان: جـ ١٥ ص ٣٨٣).

٧ ـ أما الشاعر محمود حسن إسماعيل فهو كما قال عنه الناثر الشاعر محمد عبدالغني حسن: "إنه الشاعر الوحيد الذي وقف طويلاً بجانب الفلاح - معبراً عن ألمه الطويل وكدْحه المرير، في أكثر من لوحة رائعة .. وتحس وأنت تقرأ شعره في الفلاح، أنه هو نفسه فلاَّح أصيل ..فليس شاعراً وافداً من الحضر، أو زائراً عابراً من المدينة، يقضي في الريف الهادئ الوديع، يوماً أو بعض يوم، أو حتى عطلة صيف .. ولكنه أخ صميم للفلاح الكادح، يحس إحساسه، ويشعر شعوره، ويقف معه بجانبه، تحت وَهَجَ الشمس ولفحها، وزمهرير الشتاء وقرسه و برده..[1]. فهو يصور تعاسة الفلاح وجهده الضائع، ويبكي عليه، ويحزن، فيقول فيه[2]:

ذاك تاج النيل فاندب عنـــده
أمل الفلاح والجهد المضـــاع

وأرث للمسكين عيشاً أســوداً
ران في كوخ حقير متـــداع

نامت النعمة عنهُ وجقـــت
معدماً لم يرعه في مصر راع

عقرت الريح الأسى كسرتـــه
وطوت نعماءه دنيا الصـراع

1- المصدر السابق، ص ٤٣،٤٢.
2- ديوان أغاني الكوخ، ص ٢٦.

***

وفي جانب آخر يوازن الشاعر محمود حسن إسماعيل بين الفلاح وبين الثور المقيد في الساقية، بقوله[1]:

والسواقي مفجعاتٍ عليـــــه

نائحاتٍ .. تريق من عبراتـــه!

عندها الثور قيدته يد الظُّلْـــــ

ـمِ وهذا حليفه في سمائـــــه!

والشواديف كم أرنت بأذنيـــــ

ـهِ، وصاحت تئنّ في مزرعاته

شهدت (شَمْلَةَ عليه) تحاكـــي

كَفَنًا مُزِّقَتْ بوالي رُفاتـــــه

صَبَغَ الحظُّ لونه بسَـــــوَادٍ

من أسًى نحسه ومن عثراتـــه

نِصْفُ عُريان،لو سرى نسم الفجْـ

ـرِ عليها ..تطير من خفقاتِـــه

***

1- ديوان: هكذا أغني، ص ٤٠٧.

وللشاعر محمود حسن إسماعيل قصيدة برأسها تحمل عنوان "فم الراعي" جعلها كلها وقفاً على الناعورة -أي الساقية- والثور الذي يدور بها، وهو معصوب العينين - ومن قوله فيها[١]:

وكم ناعورة ناحـــــت
على مستعبد فيهـــــا!

أسير السوط كم ضجّت
له يوما أغانيهـــــــا

شربنا المدمع الصافـي
نميراً من مآقيهـــــا

ونادمنا ظوامي الزهـر
حتى هام صاديهـــــا

ورحنا ننهب الخطـــو
سكارى بين واديهـــا

والشاعر هنا يأسى للثور، ويحاول أن يجعل شبه تعاطف بين الساقية والثور الذي يدور بها، وإن كان ذلك قد تم بصورة ذهنية بحتة، لا تقنعنا بأن الساقية قد ضجّت أغانيها، حزناً على الثور، والأحرى أن تكون الساقية شاكرة للثور جهده الفائق؛ ودورانه الممتد المتواصل، لجلب الماء من الأعماق إلى الحقول ولم نشاهد قط من

1- المصدر السابق، ص ١٠٨.

يقوم بضرب الثور بالسياط إذ أنه وهو مغمض العينين بعصابة محكمة على وجهه، كان يسير إلى ما لا نهاية، ليبلغ آخر الشوط - وليس آخر الدوران، في غاية غير متناهية..

٨ – اما الشاعر عبده بدوي، الذي لم يقطع صلته بالريف، مسقط رأسه، حين تاه غيره في زحام العواصم، فقال في قصيدته (عائد إلى القرية)[١]:

أنـا قد عُدت يا دنـــيا
ي للأحلام والنـــور!
لأرض لم تزل تنـــمو
وتزهر بين تفكـــيري
لحقل قرَّب الأهـــدا
ب من فوق الأساطـــير
وأغفى تحت ظل الـدَّوْ
ح ريَّان الأساطـــير

إلى أن يقول:

هنا أقوامي البسطـــا
ءُ منكسرين كالعُشْـــبِ

1- المصدر السابق ص ٧٤/٧٥.

على أجفانهم ما بـــينَ
دنياهم من الحـــــب

أحبهمو فهم فـــي الأرْ
ض ما أملك، هم شعبي

هم العُشَّ الذي يـــأوي
إليه مُرقرفاً قلبـــــي

وصفوة القول: نرجو أن نخلص في خلال هذا العرض- إلى أن الريف المصري قد ظفِر بعطاء شعراء مُجيدين، ترنّموا على قيثارة كراوينه وبلابله، أو بادلوها شدواً بشدو، وإيقاعاً بإيقاع .. في مشهد من مناظره الطبيعية الخلابة، ومياهه، وينابيعه المنسابة، وسط جوّ الهدوء الذي يشمله، ويجعله بعيداً عن الضوضاء والصخب في المدن.

فلقد أبدع هؤلاء الشعراء، وتفنّنوا في وصف الساقية والمحراث والطنبور، وما امتاز به أهل الريف من الوداعة وطيبة القلب، وجنوحهم إلى التأمل والاستغراق فيما حولهم، والتطلع إلى جمال الزهور والورود والرياحين، والاستمتاع بالسّمر في الليالي القمرية، بعد العمل اليومي الشاق، من الصباح حتى المساء، في زراعة الحقول، ورعي الأغنام وحلب الألبان، وتصنيع مشتقاتها، لكي يمدوا المدينة بكل خيرات الريف.

وقد كان شعراء الريف بمثابة لسان الصدق الذي أبرز وتغنى بالذكريات الجميلة في الأرض البَرَاح والحبور المتاح، والتمتع بمشاهدة عرائس المروج، النابتة على حوافّ الترع ومصادر مياه الريف..

موازنة بين شاعرين من أبرز شعراء الريف المعاصرين :

الشاعر الاول : (محمود غنيم)

لم يكن الشاعر محمود غنيم بمعزلٍ عن الريف، فهو ريفي صميم ولد في قرية "المليج" بمحافظة المنوفية عام ١٩٠٢م، كما يخبرنا بقصيدته لتي تحمل عنواناً (حنين إلى الماضى)[1]:

لعمرك ما صارت رسوماً بواليا
ولكن بُلينا نحن وهي كما هيا
مغانٍ سقيناهن ماء شبابنا
وأسْقيننا نبعاً من العلم صافيا
وما برحت شماء شامخة الذرا
فهل ثم أشياخي بها ولِداتيا؟

1- الأعمال الكاملة لمحمود غنيم ديوان رجع الصدى ص ١٤٥.

تكاد لذكراها تذوب حُشاشـــتي
ويطفر من بين الضلوع فؤاديـا

سلام عليها في "مليج" مثابـــة
حفظت بها السَّبْع القصار المثانيا

وقد تعلّم في كتاب القرية، وحفظ بها القرآن الكريم، ثم التحق بالمعهد الأحمدي في طنطا، وقد ظهر نبوغه الشعري مبكراً كما يحدثنا عن ذلك، إذ يقول:

سلام على (طنطا) ومعهدها الذي
نظمت به قبل البلوغ القوافـــيا

فقد كان ذا موهبة شعرية، غذاها والده بتشجيعه له وذلك عندما كان طفلاً صغيراً، وكان والده يقول له: اقرأ الشعر تتعلم الفصاحة، وكان يكافؤه على ذلك.

وقد تفتحت موهبة الشعر عنده وهو في سن السابعة عشرة تقريباً، وذلك عندما رثى "محمد فريد" بقوله:

قضَى نحْـــبه منها فريد وودّعـا
فيا مصر أجري نيلكِ اليومَ أدْمُعًا

وشارك بشعره أمته العربية في شتى المجالات المختلفة، منها الغرض الاجتماعي، والقومي، والدينى، وقد كان للشاعر لون آخر فكاهي مع أصدقائه، وكذلك الشعر السياسي، وشعر الرثاء، فقد رثى

غنيم أصحابه، وشيّع المصلحين والزعماء بدموعه وزفراته في قصائد باكية: كالعقاد والجارم ومحمود الخفيف .. وغيرهم من الأدباء والشعراء، يقول عن نفسه:

أنا شاعر متحـــــــرر لا راهب في ديــــــره

يهوى الجمال وفي الجما ل يصوغ رائع شعـــره

ولقد كان الشاعر محمود غنيم من كبار الشعراء الذين ضمنوا شعرهم واقع ما حولهم، وعبّروا عن خوالج الوطن العربي وعن حبه للمجتمع والريف أصدق تعبير في مختلف المواقف والمناسبات.

والحق أن محمود غنيم شاعر مصري أصيل، عذب اللسان، سلس العبارة، كما يقول عنه الدكتور مختار الوكيل: "أنه من الرعيل الذي أشْربَ بحب ذلك الشعر العرب الجزل الأصيل، بديباجته الرائعة، وصوره الدافئة، ومعانيه المتألقة، وأخيلته المجنحة"[1].

(١) حبه للريف:

والشاعر محمود غنيم مولع بالريف المصري، ومتفانٍ في حب أهله الذين يجدون السعادة، أقصى السعادة في العمل الدائب الشريف، إنهم يبدون في شعره أمثلة ونماذج للأبطال الكادحين، والواقع أن البؤس الذي كابده أهل الريف في فترة شباب شاعرنا

1- دموع على الشاعر محمود غنيم. ص ٤٤/٤٥.

وجد صداه في شعره، ولقد أحسن تصوير الريف المصري في كثير من قصائده الرائعة[١].

وفي بواكير نظمه ما يشهد حبه الصادق لأهل الريف الصابرين، مثال ذلك قوله في قصيدة له[٢]:

شاهدت لؤلؤة كالبرق تأتـــــلقُ
على جبين أمير سار مختـــــالاً

فقلت: من أنت؟ قالت: إنني عـرق
من جبهة الزارع المسكين قد سالا

فهذه النظرة العميقة التي تدعو إلى التأمل الهادئ الحزين على الفلاح، وبؤسه، وهي تواري خلفها ثورة عارمة على الصبر والرضى. وكانـــــت الطبيعة غذاء الروح للشاعر الغريد محمود غنيم، والتي نهل من منابعها، ووقف متأملاً في محرابها، وعبّر عنها في قصائد رائعة، صاغها حينما كان يقضي إجازة الصيف ببلده (المليج)، ومن تلك القصائد: قصيدة الريف، وقصيدة أنس الطبيعة وغيرهما.. فمن قوله في قصيدة الريف[٢]

1- دموع على الشاعر محمود غنيم، تقديم: محمد أحمد سلامة، طبعة دار الهنا، ب.ت، ص ٤٥.

2- نشرت في مجلة أبوللو، عدد يونيو ١٩٣٤م.

٢- ديوان صرخه فى وداد ص١١٣

زعموك مرعى للسوام وليتـهم
زعموك مرعى للعقول خصيباً

فهي القرائح أنت مصدر وحيها
كم بتَّ تلهم شاعراً وخطيـــباً

ومن قولـه فـي الطبيعة مصوراً أنها مُلاذه ومستراحه، فهي الحنان والرحمة، وهي الأم التي يدعو إلى العودة إليها: (١)

هي الطبيعة ما برَّ الأنام بهـــــا
أمًّا وبرّت بهم من قبل أنجـــــالاً

عودوا إلى حجرها إن شئتموا رغداً
كما نعمتم بهذا الحجـر أطفـــالاً

صوت الهزار وصوت العود أيهمـا
أشجاهما أثراً في النفس فعـــــالاً

ومما لا شك فيه أن صوت الهزار أشجى وأطرب من نغم العُود.

---

(١) المصدر السابق ص٧٥

(٢) الفلاحة المصرية:

والشاعر محمود غنيم متعصب لبنات الريف، خاصة وأنه كان يقضي عطلاته في أحضان الريف، مؤثراً الحياة المصرية الريفية التي تتألق بالجمال الطبيعي الناطق.

ولـه قصيدة بعنوان (على ضفاف الغدير) يصوّر فيها مشهداً ريفياً للقرويات- الحائمات حول الماء، فيقول مستهلاً[١]

جنباني خليج بحر الـــــروم
وقفا بي على ضفاف الغديـــر
ها هنا الغيد في ائتلاق النجوم
حُمْن حول الماء مثل الطيـور

حيث يصوّر الشاعر عذارى الريف، وهنّ يملأن الجرار بالماء العذب الطهور، ثم ينوّع القافية فيقول:

هنّ أقبلن بارزات الصدُور
ثم شمَّرن كل ذيل عفـــيف
يا لها من طهارة- في سفور
جمع الطهر كله في الريـف

---

(١) ديوان صرخة فى واد ص١٤٧

فهو بذلك يرسُم صورة عذبة لموكب الحسناوات الريفيات وهنّ مقبلات على الغدير، بارزات الصدور، وقد شمّرن عن ذيل ثيابهن، في طهر وعفة وسفور محبّبٌ إلى النفس.

ثم يقول في قافية أخرى:

وعجباً لحاملات الجـــرار
لحن فوق الرؤوس كالأبراج

كيف تبدو في عزمة الجبّـار
ذات جسم كالزئبق الرجراج!

ويصوّر جمالهن الطبيعي وحُمرة خدودهن من الشمس، فيقول:

ما ترهّلن في ظلام الخـــدور
أو طلـــين الأديم بالألـــوان!

بل جرت في الوجوه جري النمير
حمرة الشمس، صبغة الرحمـــن!

ثم يفضي لنا بطبيعة نشأته وتكوينه، حينما يختتم قصيدته تلك بقوله:

سائلاني من أهل تلك المغاني
إن هذا الأديم مسقط رأســي

لقنتني طيوره ألحـــــاني
وسقاني هواه أول كـــأسي!

***

مسرح كنت فوقه منذ حـين

وعليه لعبت دور الغـــلام!

لك يا ريف زفرتي وحنيني

لك عندي تقديس بيت حـرام!

وهذه الأبيات تصور عشق شاعرنا "محمود غنيم" وحبه الصادق، وتقديسه للريف، وأهله، وكفاحهم الشريف في سبيل العيش الهادئ، بل نراه يشيد بالعمل الشاق الذي يقوم به نساء الريف في البيت والحقل، ويمجّد هذا العمل، فيصوّره تاجٌ يزيّن رؤوسهن.

وهناك شاعر مصري معاصر وصف حاملة الجرّة وصفاً دقيقاً في ديوانه "عبير الأرض" هو الشاعر فوزي العنتيل، فرسمها في صورة شاملة لخطواتها ومشيتها، ووجهها؛ فجاءت صورة ناطقة، مجسّدة لكل معاني الجمال، حين يقول[1]:

كأني بها نسمة رفرفت على صفحة الماء وقت السحر

تدور كأغرودة في الحقول تأبى الحنين بها فاســـتتر

ينام على خطوها المستهام رفيف الشذا وضياء القمر

مرنحـــة والدلال الشهي يكاد على خصرهـــا ينكســـر

1- دراسات أدبية، جـ٢، جليلة رضا، ص ٩٠.

ويستمر الشاعر في وصف مفاتن حاملة الجرة، فيصوّرها ماذا تصنع مشيتها في قلوب الناظرين؟!:

تسير على خفقات القلوب، قلـوب معذبة تستـــــعر
فتلمحها في حنان العيون وشوق الجفون ونجوى الفكر

ثم يصور الجمال الحسي لحاملة الجرة، فيقول:

وفي صدرها فتنة عربدت كما عصفت موجة تنحسر
وفي وجهها جنة الملهمين وعرش الجمال وحلم البشر
وفي شفتيها لهيب الغروب تألق بين إطار الزهـــر
وفي أهدابها أسبلت في فتور وأجفانها أطرقت في خفر
ومرت وساعِدها يحتمي بجرتها من حريق النظـــر
وعشاقها فوق صمت الطريق عبيد الهوى وأسارى القدر

والشاعر فوزي العنتيل وإن كان قد تفنن في وصف مواضع الجمال في الفلاحة حاملة الجرة، وما تفعله في قلوب الناظرين وهو تغزل أقرب إلى الصريح، إلا أن الشاعر محمود غنيم عمد إلى وصف شقاء الفلاحة المصرية، ولذا فإن قصيدة غنيم أروع بكثير من فوزي العنتيل، لأنها امتازت ببساطة أسلوبها وروعة تصويرها للعيش في الريف، أجمل بقاع الأرض.

وللشاعر محمود غنيم قصيدة بعنوان (الريف) يوازن فيها بين حبه للحياة في الريف وبين حب الناس للجمال الزائف والحضارة المجلوبة، ويصف فيها طبيعة الحياة في الريف، ويستهلها بمناجاته للريف فيقول:

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا
وعشقت فيك جمالك الموهـوبا

قدست فيك من الطبيعة سرَّهـــا
أنْعِمْ بشمسك: مشرقاً وغــروباً

ثم يذكر طفولته بالريف، وحنينه إليها، بقوله:

ولقد ذكرتك فاذَّكرت طفولــتي
وتمائمي ..طوبى لعهدك طوبي

زعموك مرعى للسوام، وليتهم
زعموك مرعى للعقول خصيبا

فهْي القرائح أنت مصدر وحْيها
كم بت تلهم شاعراً وخطـــيباً

ثم ينتقل ليصوّر مشهداً طريفاً في الريف، قائلاً:

يا رب ساقية – لغير صبابـــة
أنت وأجرت دمعها المسكوبـــا

والغيد تغمس في الغدير جرارها
فيظل يضحك -ملء فيه- طروباً

والأبيات مليئة بالصور الشعرية التي تجسد الخيال والجمال معاً في نقل المشهد ، وكما يقول د. علي علي صبح عنها أنها: "هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينقلها الشاعر .. ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى في إطار قوي مؤثر"[١]. ومثال ذلك في عجزُ البيت الثاني اللفتة البديعة التي يصور فيها غنيم حركة خروج الهواء، عند امتلاء الجرة بالماء ليحلّ الهواء محلّه، وما يحدثه ذلك من صوت يشبه القهقهة .. أي أن الجرار (وربما الغدير) تضحك ملء فيها(فمها)من فرط الجذل،بما تدفق إلى أعماقها من مياة الغدران، وهذا معنى ابتكاري لغنيم.

وهو يذكرنا بقول الشاعر عزت شندي موسى، الذي يقول في المعنى نفسه في قصيدة بعنوان "حنين إلى الوطن"، عندما يتذكر موطنه مسقط رأسه في الريف:

وطني ذكرتك فـــــي غمار بعادي
فوجدت حـــــبك غائراً بفـــــؤادي

إلى أن يقول عن قريته(أم خنان)[٢]

1- البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، د. علي علي صبح، طبع المكتبة الأزهرية القاهرة: ١٩٦٦م، ص ١١ بتصرف.
2- ديوان عودة الطائر، ص ٨٩.

وذكرت (ريفك)والمروج وقد زهت
عند الضحى .. وذكرت يوم حصاد
والبُهم تسعى في الصباح لترتعي
ويحوطها الغلمان كالقواد
والغيد تملأ في الأصيل جرارها
كل تميس بقدها الميّاس

فقد نظر الدكتور شندي في البيت الأخير إلى قول الشاعر محمود غنيم:

والغيد تغمس في الغدير جرارها
فيظل يضحك -ملء فيه- طروباً

وبيت غنيم أبلغ من بيت شندي الذي اقتبس منه المعنى وحاكاه.

***

(٢) البدر:

ويضيف الشاعر محمود غنيم مشهداً ريفياً آخر فيقول للبدر المتألق في ليالي الريف[1]:

يا بدر..أنت ابن القرى، وأراك في
ليل الحَواضر -إن طلعت- غريبا

1- ديوان غنيم، الأعمال الكاملة.

وكيف لا، وقد:

نشر السكون على القرى أعْلامــه
فيكاد يسمع للفؤاد دبيـــــــــبا

ثم يصف حياة أهل المدينة، موازناً:

بدت الحياة هناك-في ريعانها-
ولو أنها سارت .. تدبُّ دبيبا

ولقد ينام القوم ملء العين في
زمن يقض مضاجعاً وجنُوباً

وتبلغ الموازنة مداها، في المفارقة التالية:

وهي السعادة، كم أوَتْ كوخاً، وكم
هجرت أشمَّ من القصور رحـــيبا

قالوا: الحضارة، قلت: أسْفر وجهها
وبدت محاسنها: فكنَّ عيوبـــــا!

ويصف حياة أهل الريف التي لا تكاد تحفل بالطب والأطباء، بقوله:

ما ضر أهل الريف ألا يحفلـــــوا
بالطب، أو .. لا يعرفوا (الميكروبا)

ضمنت سلامتهم سهولة عيشهـــم

وصفاً هواؤهمو .. فكان طبيبـــــا

وسرى شعاع الشمس من أبدانهـــم

فجرى بأوْجههم دَمًا مشبوبـــــــا

شمس القرى، كست الوجوه نضارة

أرأيت وجهاً ، في القرى، مخضوبا

(٣) وصف الفلاح:

ويصف الشاعر محمود غنيم الفلاح في صبره ومثابرته، ودماثة أخلاقه، بقوله:

أكبرت في القرويِّ حِدَّة عزمه

وحسبته في صبره (أيوبـــاً)

ورأيت طيب النفس فيه سجية

ووداده سهل المنال قريـــباً

فيه ترى الخُلُق الصريح،ولا ترى

ضحك النواجذ، بالخديعة شيبـاً

ثم ينتصر لأهل الريف وهمتهم العالية، في الكدّ والكدح، والبذل والعطاء، وتضحياتهم بقبول أقل نصيب جرّاء ذلك:

في الريف فتيان تسيل جباههـم
عرقاً .. فيصبح لؤلؤاً مثقوبـاً

بذلوا لمصر فوق ما في وسعهم
ورضوا، بما دون الكفاف نصيبا

وهذه الأبيات التي تحدث فيها غنيم عن صبر الفلاح المصري، الذي يتجاوز كل الحدود، تعكس الوجه غير الوردي للفلاحين من حياتهم، والظلم الذي حاق بهم لفترة طويلة، قبل قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢[1].

ونجتزئ بإثبات ما حدث في "كفر البرامون" في فبراير عام ١٩٣٨، وفي كفور أخرى، حيث كان زمام القرية قرابة (٧٥٠) فداناً، ويسكنها ثلاثة آلاف فلاح، لا يملكن غير (١٢) فداناً، والباقي يملكه تفتيش (أفيروف) الذي كان يوزع الأرض لحسابه، مستغلاً عُماله القرويين، مقابل أجر لا يزيد عن خمسة قروش في اليوم، في حين كان متوسط أجر العامل الزراعي في القرى المجاورة ثمانية قروش يومياً..

1- وبعد قيام الثورة المباركة أنصف الفلاحين والعمال، وجعلت نصف أعضاء المجالس النيابية والمحلية منهم.

وكان عمدة القرية يمنع عمال (العزبة) من الذهاب للعمل في الجيرة بأجور أفضل، وبسبب ذلك قامت مظاهرة فلاحية، تهتف ضد العمدة[١].

ثم تكررت هذه الحالة الفلاحية في مايو ١٩٥١، بقرية (كفور نجم) والتي هي واحدة من أملاك الأمير محمد علي ولي العهد في ذلك الوقت، حيث تأخر بعض الفلاحين في سداد الإيجار العالي، فقام (محمود الصاوي) مفتش دائرة الأمير بمساعدة البوليس بمهاجمة البيوت، وخطف ما فيها، بما في ذلك مصاغ النساء، وعندما احتج الفلاح "عناني عواد" على ذلك الاستبداد والتعسف كان نصيبه طلقة نارية، من بندقية رسمية، فسقط قتيلاً وسط أهالي قريته ليكون عبرة لغيره[٢].

وفي قصيدة أخرى يحدثنا غنيم عن (المحراث) ودوره في الزراعة بحقول القرية .. والقصيدة بعنوان (المحراث)، يقول:

يقلب الأرض في نظم وإتقان
كأنه ريشة في كفِّ فنان

يخطط الأرض لكن لا يلونها
فإن نما زرعها.. ازدانت بألوان

إلى أن يقول:

1- تاريخ مصر بين المنهج العلمي والصراع الحزبي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ٣١٩.
2- المصر السابق، ص ٣٢١.

ما قلقل الأرض إلا زاد غَلّتَهــــا

ضِعْفَيْن..فاعجب لهذا الهادم الباني

ثم يتحدث عن الفلاح حديث الخبير الواعي بقوله[١]:

راهب خط في القرىمحرابه

بين شط الغدير واللبلابـــه

عاش للحقل، والنبات فكانــا

دينه في حياتـــه وكتابـــه

وكأنما خشي من وصف الحقل والنبات، بأنهما (دين) الفلاح و(كتابه) في حياته، فاستدرك الأمر مستغفراً وموضحاً، قائلاً:

عرف الله فطرة، لا اكتساباً

فرجا عفوه، وخاف عقابــه

وزاد الأمر بياناً وإعلاناً بقوله بعد ذلك:

عرف الله في الطبيعة: عطفــاً

وحناناً، وقوة غلاَّبــــــــة

مِنْ قواها استمد قوة زنــــديـ

ـه، ومن شمسها استعار خضابه

1- الأعمال الكاملة لمحمود غنيم ديوان صرخه في واد ص ١٣٩

لم يزيّن ثيابه النقش، لكـــــن
زين الطهر والعفاف ثيابـــــه
وإذا خاف من حساب عســـير
ذو ثراءٍ .. فما أخف حسابـــه
لم يؤرقه .. في مناط الثريـــا
مطلبٌ راح يرتقي أسبابـــــه
مكتفٍ من طعامه بكفـــــاف
قانع من شاربه بصبابـــــه
في سكون القرى ينام ويصحـو
ما له .. والمدائن الصخّابـــه؟

***

ولا يفوته أن يرصد حركة مشهد ريفي آخر، للبط العائم، فيقول:

قم فأنظر الماء-ماء النهر في دعة
والبط - يسبح فيه، وهو جـذلان
يخطُّ فيه خطوطاً، لا بقاء لهـــا
كأنها حادث، يمحوه نسيـــان

من كل ماخرة، للماء عابـــــرة
كأنها وحدها: فُلك وربـــــان[١]

الجيد سارية، في الجو عاليـــــة
والرِّجْلُ في الماء:مِجْدافٌ وسُكَّانُ

ويصف مجموعة البط العائمة في منظر أخاذ، بأنها:

أسطول سِلْمٍ تقرّ العين رؤيتـــه
لم تندفعْ منه، نحو الشط نيران!

***

وهناك مشهد لا نراه إلا في منازل القرى بصفة خاصة، عند عودة رب الأسرة من العمل إلى بيته، يصور لنا الشاعر محمود غنيم في قصيدته التي تحمل عنوان "أنا وأولادي - حول المدفأة" وقد نشرت هذه القصيدة لأول مرة بمجلة الرسالة[٢]، عام ١٩٣٧م، أي قبل انتقاله إلى القاهرة للعمل بها عام ١٩٣٨، ولم يكن قد رُزق من الأبناء إلا بولدين اثنين، ومن ثم يستهل قصيدته تلك بقوله:

وأطيب ساع الحياة لديَّـــا
عشية أخلو إلى ولديَّـــا

1- المصدر السابق.
2- مجلة الرسالة، عدد فبراير، الخامس عشر، ١٩٣٧ديوان صرخه في واد ص ١١٦ .

فأجلس هذا إلى جانبـــي

وأجلس ذاك على ركبتـيا

هنالك تحلو متاعب يومي

كأني لم ألق من اليوم شيًا

ياله من مشهد عائلي رائع، ينمّ عن تعاطف الأسرة السعيدة والأبوة الهانئة - ثم يلي ذلك تصوير واقع الحال في ظروف حياته المادية، فيقول:

وأغزو الشتاء بموقد فحـم

وأبسط من فوقه راحَتَيَّـا

هنالك أنسى متاعب يومي

كأنّي لم ألق في اليوم شيًا

ثم يزيد الصورة اكتمالاً، حينما يستطرد قائلاً:

وأحسبني بين طفليَّ (شاهـاً)

وأحسب (كوخي)..قصْرًا عليًا

وما حاجتي لغذاء ومـــاء؟

بحسبيَ طفلاي: زاداً وريَّـا

فكل طعام أراه لذيـــذاً

وكل شراب أراه شهـــيًا

ثم تقوده شاعريته المطبوعة، إلى وصف عالم الطفولة البريء المُمتع، بقوله:

ويا رُب لغْو يفوه الصـــــبيّ
به، فيكون حديثاً شجيًّـــــا

فأفصح من أفصح الناس،طفل
أراد الكلام، فكان عيـــــيًا!

ثم يصوّر شقاوة الأبناء الصغار، وتسامح الآباء وتغاضيهم عما يحدث من تعرض بعض الآنية للكسر بقوله:

أيا ابْنيَّ، أحببْ بما تُتْلِفـــان
وأهون -بما تكسران- عليًا!

ثم يدعو لهما بقوله:

يصونكما الله من حادثات
الزمان، ويبقيكما ليَ مليًا

ويكفيكما الله شر البكـــاء
ويحفظ من وقعه أذنـــيًا

أمِنْ كبدي أنتما فلذتـــا
ن، أم أنتما حبتا مقلتـــيًا؟

ويقول في الموضوع ذاته في قصيدة أخرى:

ما تمنيت أن يكون لحـــــــي
غير نجلي: فوق ارتقائي ارتقاءُ

ليس كل التراث: بيتاً وحقـــلاً
خير ما وُرِّث البنون: الدّعـــاءُ

***

نقلة في حياة الشاعر محمود غنيم:

بعدما أفاض الشاعر الريفي محمود غنيم في التغنيّ بمحاسن الريف وبدائعه، نراه ينزع إلى التمرّد عل حاضره، عندما أمضى العمل في قرية (كوم حماده) تسع سنوات، ذاق فيها الأمرَّين من حنينه للعمل في التدريس بالعاصمة (القاهرة) وذلك بعد معاناته من (يوم عابس) وصفه بدقة شديدة في قصيدة تحمل هذا العنوان بقوله[1]:

يالصباح حائل الأديـــــم
قد طعن الربيع في الصميم

أمطاره قد شوهـــت آذاره
وريحه قد صوحت أزهاره

1- الأعمال الكاملة للشاعر محمود غنيم، ط ١٩٩٣، ص ١٣١.

إلى أن يقول:

الأرض تحتاج إلى عوّام
فكيف بالسير على الأقدام

من رام أن يسعى يمينا – أيسر
ومن مشى قدّام، عاد القهقريّ!

أي: من أراد أن يمشي جهة اليمين، اضطرته الأوحال أن يسير جهة اليسار. ثم يصف حيرته وكربه في هذا الخضمّ، فيقول:

مشيت كالنشوان، كل همِّي
ألا يخوننـي: اتّزان جسمي

وذلك لأنه يسير سير المقيد في الوحل .. إذ يقول مستطرداً:

وعثرة اللسان في المقـــال
دون عثار الرِّجْل في الأوحال

وفي حوار مع مدرس زميل، أثناء سيرهما في هذا الجوّ الشتويّ العاصف، يذكره هذا الزميل باقتراب بدء اليوم الدراسي فيقول:

قال صديقي: دنت الـدروس
وبعد خمس يُضرب الناقوس[1]

1- أي بعد خمس دقائق.

فقلت: مهلاً أيها الرفيـــق

ما يفعل المدرّسُ الغريــق

قال: أجِيماً تبتغي وسينـــاً

فقلت: لا أجهل القانونـــا

لا تذكر القانون في الأريـــاف

قد وضع القانون..في الجفاف[1]

حيث الشوارع التي لا تنضح

ولا بماء المُزن فيها تسمـــح

وهكذا "نشرب" نحن المطرا

وساكن المُدْن به ما شَعَـــرا

وينتهي إلى نتيجة حاسمة، يذكرها في نهاية أبيات قصيدته تلك بقوله:

وكل ما في الريف من محامد

يذهب .. في أمطار يومٍ واحدْ!

ونرى أن أبيات قصيدته تلك، تعبر عن بداية التذمّر والضجر من مضايقات مهنة التدريس التي يحترفها، والضيق من الحياة الريفية، وحنينه إلى العمل بالقاهرة، حيث محافلها الأدبية، وفرص

1- في حالة صفاء الجوّ وخلوّ الطريق من الأوحال يمكن تطبيق القانون على المتأخرين.

النشر في مجلاتها الأدبية، والاحتكاك بكبار الشعراء والأدباء بها، والتماس الوسائل لتنمية دخله الشهري المتواضع.

ونستطيع أن نستشف ذلك في قصيدته الرائعة التي تحمل عنوان "كأس تفيض"[1]، التي نشرها بمجلة الرسالة لأول مرة، ويستهلها بقوله في التنفيس عما يعتلج في نفسه من مشاعر الضيق والبرحاء:

لك الله، لا تشكو ولا تتـــــــبرم
فؤادك فيّاض، وفكُّك مُلْجَـــــــمْ

يفيض لسان المرء،إن ضاق صدره
ويطفح زيت الكيل، والكيل مُفعــمْ

تعللت دهراً بالمنى، فإذا بهـــــا
قوارير من مسِّ الصِّبا تتحطّـــمْ

ثم يصف عمله المتكرّر الرتيب بمدرسة كوم حمادة، الذي لا يأتي بجديد، سوى السآمة والملل، فيقول:

كأني إطار دائر حول نفسه
يطول به السعي ولا يتقدم

ثم يقول معتداً بنفسه ومواهبه:

1- مجلة الرسالة، عدد سبتمبر ١٩٣٥، والأعمال الكاملة لغنيم،ديوان صرخه في واد ص ٢٣٣.

وما أنا ممن تخطئ العين مثلـــه

ولكن تعامى القوم عني أو عُمُوا

إلى أن يقول متحسّراً:

أيذوي شبابي، بين جُدران قريـــة

يباب، كأن الصمت فيها مخيـــم

أكاد من الصمت الذي هو شاملي

إذا حسب الأحياء، لم أك منهمو!

وعاشرت أهليها سنين وإننـــي

غريب بإحساسي،وروحي عنهمو

ثم يقول متضجراً من الخضرة والنضرة، اللتين أشاد بهما من قبل في قصائده السابقة، وكأنه يناقض نفسه:

يقولون خضراء المرابع: نُضْرةً

فقلت: هبوهاً! لست شاة تُســوَّم

إلى أن يقول:

فمن مبلغ "بنت المعز" بأن لي

فؤاداً عليها كالطيور- يُحـــوِّمُ

ثم يصف ما يعانيه من مشقة في أداء مقتضيات مهنة التدريس حين يستتلي قائلاً:

لعمرُك إني قد برمت لفتـــية
أروح وأغدو كل يوم عليهمو

صغار نربيهم، بمثل عقولهم
ونبنيهمو، لكننا، نتـــــــهدم

لأوشك أن أرتد طفلاً لطول ما
أمثل دور الطفل بين يديهمـــو

إلى أن يقول:

فصول بدأناها وسوف نعيدها
دواليْك، واللّحنُ المكرر يُسأم

وهكذا بدأ الشاعر صفحة جديدة من حياته، بعد نشر قصيدته سالفة الذكر، إذا اطلع عليها الأديب المتعاطف مع الأدباء والشعراء في ذلك الحين: أنطوني الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام وقتها، وعاون في نقل غنيم للعمل بالقاهرة،

.....

الشاعر الثاني :

شاعر البراري محمد السيد شحاتة

هذا الشاعر يختلف كثيراً عن زميله الشاعر محمود غنيم في المنحى والأسلوب، على الرغم من أنه مثله من شعراء وعشاق الريف المعاميد، بل ويبزهُ في التصاقه بالريف ومشاهد الطبيعة فيه، والتحامه بها تماماً، فيما أبدع من قصائد، مستقاة من الريف ودالة عليه.

ويكمن الاختلاف في الإفراط في استخدام الرمز، بما قلّ ودلّ من الألفاظ، في التعبير عن مشاعره وخلجاته المستقاة في مجموعها من الريف وحده فحسب، واكتفي بإعطائنا ترجمة وجيزة لحياته ونشأته، في أي قرية ول؟، وتاريخ ميلاده، وتحصيله للعلم، والتثقيف الذاتي،ولقب نفسه : بشاعر البراري الذي قدم نفسه لقرائه في مقدمة اول ديوان صدر له عام ١٩٢٨ م بقوله (في الليلة الحادية عشرة من شهر ابريل عام ١٩٠١ ميلادية اخرجني الله جل شأنه الي عالم الوجود لأحمل قسطي الوافر من هموم الحياة والآمها ، وفي سنة ١٩٢٢ ميلادية حصلت علي " شهادة الكفاءة " للتعليم الأولي ، وفي السادس من سبتمبر من السنة المذكورة عينت مدرسا ببلدتي كفر الجرايدة)

وتوفي الشاعر محمد السيد شحاته عام ١٩٦٣ م

حبه للقرية والفلاح :

لم يدع شاعر البراري شاردة ولا واردة عن القرية والفلاح إلا وأوردهما في ديوانه.. ولكن بإيجاز شديد .. ولا نتبين ملامحه إلا من خلال التركي الشديد، بحيث لا يزيد عدد أبيات القصيدة لديه عن عشرة أبيات؛ يضمنها الكثير من المعاني التي تحتوي على الغزير من الصور والظلال والإيحاءات، تحتاج إلى إمعان النظر، حتى نستوعب تماماً ما يعنيه في ديوانه (بين أحضان الطبيعة) الذي نشر بين عامي١٩٤٢و ١٩٤٨ م في جزءين إبان قسوة الاقطاع وسلطانه الرهيب ، بمقدمة ضافية لرئيس تحرير الأهرام أنطون الجميل، الذي كان ينشر قصائد الديوان، مُنجمَّة بين الحين والحين في الأهرام، باحتفاء كبير، ويزدحم ديوانه " بين أحضان الطبيعة " بقصائد ومقطعات أنيقة في وصف الغروب والشفق ، والزهور والقرية والمحراث والساقية والقطن والصفصافة ، وما إليها من مجالي الطبيعة في الريف بصور طبيعية جميلة

وشاعر البراري مستقل تماماً في معانيه وألفاظه، لا يذكِّر القارئ بأحد، متفرد في تلميحاته وصوره، التي لا تنقل إليك إلا بالمعاني الريفية التي اقتصر عليها، بفنية واقتدار، بعد مزجها بمشاعره وخطرات نفسه، وانفساح خياله، بعمق وصدق .. وكأنه كان يعتصر أوابده الكثيرة في الأبيات والصفحات القليلة، تماماً كالقنينة الصغيرة التي تشتمل على عصارة الزهرات والورود الكثيرة، لتمنحنا العطر الثمين...

فشعره يمتاز بالدقة والرقة، بعد استنباطه واستقصائه من مشاهداته في الريف فحسب، وإتيانه الوزن والقافية له بطواعية تامة، فهو شاعر مطبوع في تشبيهاته وابتكاراته، بمهارة فائقة لا تُجارى وربما كان ذلك راجعاً إلى قراءاته في شعر الرافعي بصفة خاصة، ونثره في (رسائل الأحزان) و(السحاب الأحمر) و(أوراق الورد) و(حديث القمر) وغيرها خاصة وأن الرافعي انطلق ينشد نشيد (الفلاحة المصرية) عام ١٩٠٨ ويقول فيه[1]:

أنا ابنه الفلاح أم النصـــــر
فلاحة يا بنت هذا العصـــــر

لكن كوخي من أساس مصر
يَسْند فيها ركْنَ كلِّ قصـــــر

ولعلّ هذه الالتفاتة، كما يقول الأستاذ محمد عبدالغني حسن من شاعر مصري إلى الفلاح "هي أول ما يصادفنا في دواوين الشعر العربي منذ القرن العشرين، ولعلها كانت: إشارة البدء[2] إلى أن يقول "ويأتي إحساس مصطفى صادق الرافعي بالفلاح المصري، مواكباً لإحساسه بالريف وجماله".

1- د محمد عبدالغني حسن، الفلاح في الأدب العربي، طبعة سلسلة المكتبة الثقافية ط/ أولى، ١٩٦٥، العدد ١٢٨، ص ٢٥ وما بعدها.
2- المصدر السابق، ص ٢٦.

وقد استلفتنا أن الرافعي نظم شعراً رائعاً في (زهرة الفول)، يقول فيه عنها، إنها:

نائمات روضها في سريـــــر
بين خزٍّ وسندسٍ وحريـــــر

هزها الفجر فاستفاقت كما تطـ
ـرُف، بعد الكرى جفون الصغير

جال فيها الندى كما حيّر الدمـــ
ـع ذلال الهوى بأهداب حُـــور

***

زهرة الفول أنت نضرة عمـــر
عطر من هوى الشباب قصـــير

تشبه الأرض جنّة، أنت فيهـــا
زغب الريش ساقطا من طيـــور

ولو أن النجوم ذات قشـــــور
لحسبناك - بعض تلك القشـــور

ونجد (شاعر البراري) يستلهم (زهرة الفول) أيضاً، في أبياته التي يقول فيها[1]:

1- ديوان بين أحضان الطبيعة.

يا زهرة الفول إن الله سبحانـــــه

أنْشأكِ للنَّحْلِ في عهد الشتا حانه

تسقيه من رحيق يستحيل إلـــى

شهدٍ، ويسقيك يا زهراء ألحانـــه

يا زهرة الفول صلَّى النحلُ فيك جما

عات، ورتّل في دنياك قرآنـــه

فلم تقولي له أحسنت باخلـــة

عليه، بل قُلتها إذ ذاك مثّانـــه

يا حانة النحل! يا محراب سجدته!

يا من تجازين بالإحسان إحسانـه

قولي لمصر اقتدي بي في معاملتي

له، ولا تُنقِصِي "الفلاح" ميزانـه

ونلاحظ أن شاعر البراري قد تحدث عن "زهرة الفول" ذاتها التي تحدث عنها الرافعي، إلا أن حديثه مختلف تماماً عن حديث الرافعي عن هذه الزهرة، إذ أن الرافعي قد استخدم وصْفهُ الساحر لسمتها وجمالها، في حين تحدث شاعر البراري عن قصتها مع النحل، وحثها على إنصاف "الفلاح" غارس هذه الزهرة وراعيها.

***

هذه مقدمة لابد منها، قبل ولوج عالم (شاعر البراري) الرحيب، ولعل قصيدته (القرية)[1]، تمثل الإفصاح عن معانيه، ومدى هيامه بها:

ملكتها من فؤادي السر والعلَنَا
وما تعشَّقتُ إلا وجهها الحسَنَا

مهد الجلال،وميدان الجمال ومَرْ
قاةُ الخيال، حماها الله لي وطنا!

وقفتُ عيني على دُنيا أزاهرها
كما وقفت على أطيارها الأذُنَا

إلى أن يقول بشغف ووجد عن هذه الأطيار أنها:

تفتنُّ في الصَّدح إنْ حطَّتْ على فَنَنٍ
كأنها كُلِّفتْ أن تُنطق الفِتَنَا

وتلك في روضها النشوان باسمة
للوافيَيْن لها: فلاّحها .. وأنـا

تبيع للجوِّ أنفاساً معطَّرةً
والجو يُنقدها: دُرَّ الندى .. ثمنا

1- ديوان (بين أحضان الطبيعة) ط ١٩٤٣، ص ٢٨، للشاعر محمد السيد شحاتة.

هذا شعر تفيض الرقة والعذوبة من ألفاظه، فالفلاح هو الوفي الأول للبذر والحصاد، والشاعر هو الوفي الثاني للإشادة وإبراز مفاتنها واجتلاء محاسنها برأي العين: من زهور وورود وإرهاف الأذن لتغريد طيورها إذا حطت على الأغصان، وكأنها مكلفة بإنطاق هذه الغصُون، بأغاريدها وشدوها، والصياغة الابتكارية لهذه المعاني بما لم يسبق إليها أحد قبل شاعر البراري.

***

إحساسه بالفلاح في شعره :

هناك كلمة إنصاف لشاعر البراري في الفلاح قالها الأستاذ محمد عبد العزيز حسن (أنه قلب ظل ينبض طويلا بحب مصر وأهليها ، وكانت نبضاته تترجم في أشعار ومقطعات رقيقة جميلة ، ودقيقة ومستوعبة فيها كل الحب ، وكل الثورة ، وكل الأمل ... ولقد اختار هذا القلب طبيعتنا الريفية مسرحا لحبه ، ومرتعا لهواه ، يحكي من خلال حبه لها ، وشعره فيها ، ما يحس به نحو نفسه وبني وطنه ، ذلكم هو شاعر البراري محمد السيد شحاته)

وشاعر البراري فلاح من أول عمره إلى آخره وفي كل لحظه من عمره كان لا ينسي أنه فلاح ، وابن فلاح فقير ، كانت له مع الاقطاع قصة دامية وهو أوفى ما يكون للريف وساكنيه ، بعكس ما قاله عنه الأستاذ محمد عبد الغني حسن في كتابه الفلاح في الأدب العربي (أنه لا يوجد في ديوانه إلا مقطعه واحدة من أربعة أبيات بعنوان

الفلاح ، وبأنه استغرق في وصف الريف ولم ينظر لسكان الريف أهله من الفلاحين ، مع إن عدالة القسمة بين الإحساس بالأرض والإحساس بمن علي الأرض ، كانت تقتضي وقفة من أمثال هؤلاء الشعراء الذين لم يمر الفلاح ببالهم ، علي حين تشد أنظارهم فراشة حائمة ، أو ماشية سائمة) .

والحق أن هذا الكلام لا ينطبق أبدا علي مثل شاعر البراري ، الذي وقف مع الفلاح طوال حياته يصور في شعره ما يعانيه بأوضح ما يكون وأجرأ ما يكون ، غير متأثر بنظرة الأتراك إلى الفلاح ، فهو شاعر تحمل في سبيل الفلاح كثيرا من الاضطهاد ، وطالما اقض مضاجع الإقطاعيين في عز سلطانهم دفاعا عن الفلاح ووصفه المثير لحال الفلاح وما يعانيه ، فهو بحق الشاعر الريفي الذي تحدث في كثير من قصائده ومقطعاته عن الفلاح

ففي قصيدته (الساقية) يحدثنا عن ساقية تدور بدأب، وتحمل المياه من أسفل لأعلى، لريِّ الأرض وإنبات الزروعوالتي يكون في مطلعها :

لم تستطع ان تري الفلاح مكتئباً

يستشعر الفقر في واد يفيض غني

فاستعطفتنا بأنات مطولة

واوفدت دمـــعها يستعطف الزمنا

و شـاعر الـبراري اراد أن ينبئـنا بـأن الفـلاح يناضـل فـي وادٍ يفيض غنًى، جرَّاء كدح لا يلاقيه، ومن ثم فقد رقت الساقية لحاله، واستعطفتنا بأنَّاتها ودموعها لإنصافه.. وهذه معانٍ قريبة التناول وخاصة قوله: إن الساقية تبكي بدمع شَيم، أي لا سخونة فيه، لأنها لم تذق مثل الفلاح قسوة المحن .. ثم إن البيت الأخير الذي يقول فيه، إن الساقية:

تبكي فتبسم الأزهار ضاحكة

أمام باكية لا تعرف الحزنـــا

وهذا هو المعنى المطروق، كالتعبير الشائع:

ضحكت الأرض من بكاء السماء

***

ولشاعر البراري أبيات عن (المحراث) تذكرنا بأبيات الشاعر (محمود غنيم) في الموضوع ذاته التي يقول فيها-غنيم- بأنه (أي المحراث):

يقلب الأرض في نظم وإتقان

كأنه ريشة في كفِّ فنـــــــان

يخطط الأرض لكن لا يلونها

فإن نما زرعها – ازدانت بألوان

إلى أن يقول:

ما قلقل الأرض إلا زاد غَلّتَهـــا
ضِعْفَيْن..فاعجب لهذا الهادم الباني

أما شاعر البراري فيقول:

هو اليراع الذي اختار الإله لـــه
من أرض مصر حماها الله "قرطاساً"

"مداده" عرقُ الفلاح مُتَّصـــــلاً
لرد إيحاش وجه الأرض .. إيناساً

يغزو الحقول - فلا تبدي معارضة
لأن ذلك غزو .. ينفع الناســـا

***

وبشيء من التأمل والموازنة بين الشاعرين في هذا المجال نلاحظ أن البيت الأول لغنيم أكثر قوة وفاعلية من البيت الأول لشاعر البراري؛ لأن استعمال فعل (يقلّب) يصور قوة المحراث الضاربة، مما يجعل صدر هذا البيت يمثل حركة المحراث في حركته الدائبة، أما العجز -في البيت الأول- فجانب أبعاد الصورة القوية، حينما عاد فشبّه المحراث بالريشة، وهي أقل تأثيراً، وكذلك وصف كفَّ الفلاح الخشنة القوية، بكف الفنان، وشتان بينهما.

وفي البيت الثالث يزيد قول غنيم قوة وصفه أنه (الهادم الباني) بعد أن تقلقل الأرض لزيادة غلّتها ...

وعلى العكس من ذلك، نجد وصف المحراث عند شاعر البراري ليس بشيء، في قوله: إن الله قد اختار المحراث ليكون بمثابة يراع (أي قلم) واختار أرض مصر (كراسة) يدوّن فيها المحراث ما يدوّن..

وكذلك يقرر أن الحقول لا تبدي معارضة؛ لأن غزو المحراث لها ينفع الناس، وهذا معنى قريب الغوْر، لأنه ليس بيد الحقول حَوْل ولا طوْل، لإبداء أية عارضة.

أما بيت القصيد في الأبيات كلها، لشاعر البراري في البيت الثاني: بأن مداد اليراع، هو المستمد من العرق المتصل للفلاح، والذي يجعل وجه الأرض يهتزّ اهتزازاً يموج بالحياة والحركة، بعدما كانت عليه من يباب و(إيحاش)..

ولم تخل أبياته في المحراث من ذكر الفلاح .

ويبدو تعاطفه مع (الفلاح) في إحدى مقطوعاته، التي يقول في إحداها واصفاً الشمس في حالتي الشروق والغروب:

عبرت "محيط الأفق" سبّاحة

ولذاك راحت تطلب الراحـــه

"برقوقة" وقت الشروق وفي

وقت الغروب..تصير "تُفاحة"

مُصْفَرَّة الوجنات آلمهـــا

إهمالُ، وادي النيل: "فلاَّحه"

وفــي هــذه الأبيات القلـيلة، مــا يغنــي عــن الصـفحات الطـوال للمقالات التي تندد بإهمال حالة الفلاح المعيشية التي يصورها أحمد الصافي النجفي، بقوله[1]:

رفقًا بنفسك أيها الفـــلاَّحُ

تسعى وسعيك ليس فيه فلاحُ

وقول الزهاوي[2]:

إنَّ مَنْ كَدُّوا يزرعون البقاعــا

أشبعوا غيرهـم .. وباتوا جياعاً

***

1- أحمد الصافي النجفي (شاعر عربي شهير) ولد في النجف الأشرف بالعراق عام ١٨٩٧ م وتوفيعام ١٩٧٧م في دمشق، ترك خمسة دواوين مخطوطة في سفارة العراق ببيروت، مجلة الشعر، العدد التاسع، ١٩٧٨، قصائد أحمد الصافي النجفي ص ٩١/ ٩٢.

2- ديوان جميل صدقي الزهاوي، ص ٨١.

ويعود شاعر البراري في قصيدة أخرى يُبدي بها تعاطفه مع الفلاح وأحواله بدون إسراف أو تهويل، في قصيدته (لُجّة الليل) التي يناجي فيها هذه اللجّة بقوله:

يا لُجة الليل حَّى البدر "مَلاَّحاً"

واستقبلي نجمك الوضاء "سبَّاحًا"

وهو في هذا البيت قد وفق إلى تعبير مبتكر، إذ صوّر البدر والنجم بأنهما "ملاح" و"سباح" يُعملان التوغل في الظلام، بمجاديف من النور! .. ثم يستتلي قائلاً:

والزهر رَقَّ له في سُهده فبكى

كأنما ظنهُ، في الأفق -"فلاحاً"

وفي لمحة أخرى في قصيدته التي تحمل عنوان "السَّحَر) يقول :

لَحْنِي ولَحْن العندليب التقي

صداهما .. في حُسنكِ السافر

فعبَّر الطائر عن شاعـــــر

وعبَّر الشاعر عن طائــــر

ومن السهل الممتنع قوله يصف منظر الأمواج في قصيدته (على الشاطئ):

وفي المساء أرى في طيِّهَا (شَفَقًا)

أظنه قطعة من قلبي الدامـــــي

وهذا البيت يذكّرنا ببيت الرافعي من نفس البحر والقافية:

مَرَّتْ على الورد في البستان مُنْطرحًا

أسًى .. وقالت: أهذا قلبه الدامـــي؟!

***

وقد حظي الربيع بنصيب وافرٍ من التفات الشاعر محمد السيد شحاتة إليه، في قصائد كثيرة، منها الغزلية الرقيقة التي تكمن في مناجاته لقوافيه في أبياته التالية من قصيدة (الربيع):

أذّن الطيرُ للربيع النابـــهْ

فأقيمي الصلاة في محرابــهْ

يا قوافي، زهر الربيع قـوافٍ

فانظمِيه يقرأه ضمن كتابــهْ

لا تكوني أقل من صادحـــات

يتغنَّيْن بيننا في الرُّبَى ..بِـــهْ

جاء يسعى وأدمعي ونـــداه

ودمائي وورده .. في ركابـــهْ

جاء يُضْفِي على الخمائل حُسْنًا

وشباباً .. من حُسنه وشبابـــهْ

جاء يعطي الغصونَ درساً جديداً

في تَثَنّي القُدُودِ .. حتّى .. تُشابهْ!

ثم يرقّ في حديثه عن (الوردة) .. بعد مجيء الربيع، فيقول عنها إنها:

بدت للربيع كما شاءهـــا

مُضرَّجة بدماء المُهَـــجْ

تقول لأكمامه: ضِقْتِ بـــي

إلى أن أتى في الربيع الفرج

فأهلاً بها صَبَّةً في الرُّبَـــى

تبث الـــهوى بلسان الارج

وتذرف فينا دموع الهـــوى

جِهاراً .. وليس عليها حرج

***

ولم ينس شاعرنا الفلاح في قصائده التي قالها في الربيع ، بل تابع الحديث عنه ، والعيش معه بطريقته الفذة الجرينة فيقول في قصيده اخري بعنوان الربيع :

سل يا ربيع علي فلاح مصر اسي

فشيئه لم يزل في مصر مبخوسا

ما باله يلبس الدنيا سعادتها

ويكتفي هو بالحـــرمان ملبوسا

وتحت العنوان السابق نفسه يقول شاعر البراري :

اهتف لفلاح الـــــبرا ري علي ربيع جـداره

ودع القصور القائمات علي القصور وحي داره

***

وله قصائد بعنوان وفاء النيل لا ينس فيها الفلاح وانما يقول في احداها

شكا بؤسه الفلاح للنيل وافيا

وهذا هدير النيل قد ردد الشكوي

فعلق علي شكواه يا نيل انه

علي بث شكواه لغيرك لا يقوي

هذا هو شعره عن الفلاح وفي الفلاح ، ونراه قد مزج الحديث عن الفلاح بالحديث عن الربيع والساقية والمحراث والقطن ، فمثلا في قصيدة القطن يقول :

خِلت" لوزاتها" الوضاء نجوما

طالعات من الغصون علينا

قد تبسمن في المزارع للفلا

ح ، اهلا بهن ادين ديـــنا

اما (لوز القطن) فيقول عنه :

امل تبسم ام ضـــياء لاحـــا

ام لوز قطن ضاحك الفلاح

ما اصبر الفلاح في الدنيا وما

امضاه في ثوب الكفاف كفاحا

مازال يـسترضي دجنة قطنه

حتي استحالت في يديه صباحا

وهكذا نجد شاعر البراري في بعض شعره عن الفلاح ، يعبر عنه بالحب الصادق ويحنو عليه بقلبه المخلص الوفي ، وياسي لاساه ويشقي لشقاه

مظاهر الطبيعة في شعره :

يتحدث عن شغفه بـ (زهور الريف)، بقوله:

أ زهور في الريف أم أنغام
حَقَّقتْها بين الرُّبَى الأيـــام!

أم عيون غنَّى الهَزَارُ إلى أن
أيقظتها من نومها الأنغـام؟

مُشرقات .. كأنها بَسَمَـاتٌ
وادِعَاتٌ كأنها استرْحـــام

حنَّ شعري لها وحنَّت إليـــه
بين شعري، وبينها .. أرْحام

ويستمر بترتيله الرخيم ونفخه في مزاميره، باستغراق ابن الريف فيما يحيط به من صفاء وجمال، واستلهام للمعاني التي لا تخطر على بال شاعر الحضَر، فيُشجينا حينما نحضر معه بتخيّلنا حفلة عُرس، بقصيدته (عُرس الطبيعة) التي يستهلها بقوله البديع:

نفحة الروض، زُوِّجَتْ "للنسيم"
بين غصن حانٍ .. وزهر بسـيم

وتلا "صيغة الزواج" عليـــنا
عندليبٌ يشدو بصوت رخـــيم

وجُمان الندى: (الصَّدَاقُ)..وأنعم
بصداقٍ من السماء كريـــــم

إلى أن يتوجه بالحديث إلى زواج الجمال والطهر، بقوله:

يا زواج الجمال والطهر قد فزْ

ت بقسط من الجلال العظـيم

كرَّمتك الأطيار واشترك النَّغْـ

ـرُ -بإذن الربيع- في التكريـم

ثم لا يلبث أن يدير حواراً طريفاً بين غادة وزهرة، يستهله بقول الغادة:

ألا ليتني، في عالم الزهرة، زهرة

تضاحكني الأحلام بين الخمائِـل

أنام على الأغصان كلّها النـدى

ومال بها تحنان صوت البلابـل

وأصحو على لثم النسيم مَبَاسِمِـي

وأغسل وجهي بالندى،خبر "سائل"

الزهرة:

ألا ليتني في عالم الغيد: غـادة

أمدُّ على طير القلوب: حبَائِلِـي

أروح وأغدو في دلالي ونشوتي

وأسقي حبيبي من شُمولِ شمائلِي

يُحدِّثُهُم قدِّي عن الغُصْنِ، بينمـــا
يُحدِّثُهُم لحظاي: عن سِحْ بابـــلِ

***

ويستمر في همسه الرومانسي الحالم في حضن الريف الناغم، ليزفّ إلينا مقطوعة أخرى، تصوّر قدرته الخيالية الرّاقية على استلهام أجْواءٍ أثيرية من بيئته التي تواتيه بما تفيض به عليه من رهافة الشعور بالبدائع، فيحدثنا عما حدث في قصيدته (في مطلع الفجر) بقول في تهيامه:

لقد بات نجم الليل في هدأة الفجـــــر
يداعب زهر الروض،والليل لا يدري

وفي مطلع الفجر انْطفا النجم واختفى
جنيت على الأحلام، يا مطلع الفجـــر

لذلك باحت أعْيُن الزهر بالهـــــوى
وأبدت لنا المكنون من دمعها الدُّرِّي

أليس(الندى)فيض الدموع التي جَرَتْ
وداعاً لنجم الليل- من أعْيُن الزَّهـــر

ثم لا يأنف أن ينظم في معانٍ يخيّل إلينا أنها غير شعرية، في قصائده التي تحمل عناوين: (الضفدعة)، (الغراب)، (السمكة)،

(الهدهد)، (زراعة القطن)، (العصافير وسنبل القمح)، (البعوض)، (البرتقالة)، (سنبلة القمح)، (البطيخة)، (أمشير) .. وكلها من المشاهد المألوفة في الريف، ومن يرجع إليها يجد أنه أجاد فيا إجادته في الموضوعات (الشعرية) الأخرى التي قدمنا فيما سبق بعض نماذج منها.. وكيف لا؟ وهو يتحدث (إلى البراري) حديثاً شيقاً يصوّر مدى تعاطفه وامتزاجه الشعوري الحميم بالريف، كجزء مكمّل له، في مجال التعبير والتصوير، حين يقول:

للشعر فيكِ أذَانٌ ملء آذانـــــك

أحْسَنْتِ قبلاً فلم يُكفر بإحسانـــك

أعطاف بانِكِ قد هزَّتْ عواطفـــه

وألهمته الهوى: أجفانُ غزلانـــك

إلى أن يقول:

ما جنة الخلد، في ظني، وكوثرها

إلا كودْيانك الخضْرَا .. وغدرانك

ثم يقول في البيت التالي، الدال على رسالته الشعرية بالنسبة للريف:

يا أمَّ شعري، ويا أمي العزيزة، أوْ

لاكِ: فؤادي، عتادي مُلْكُ شطآنك

لي فيك حبٌّ طيور الدوح تقـرؤه
والريح تكتبه .. في رمْل كثبانـك

ويقول بوجد مذيب في ختام أبياته:

فإن أمُتْ، فانْسِجِي زهر الرُّبى كفناً
بل وادفنيني في ثرى بانـــــــك

وغسِّليني برقراق الندى، وكاسـي
إلى طيور الربى: تأبين (حسَّانك)[1]

ومهما يكن من أمر، وبعد تنقلنا بين أفانين اثنين من أقدر شعراء الريف المعاصرين .. فإننا حرصنا على التغلغل في عُمق وأبعاد نصوصهما الشعرية، لإضاءة جوانبها، وسَبْر أغوارها، وكَشْفِ عناصر الإجادة فيها، عند هذا الشاعر، أو ذاك..

<u>ونلاحظ على معظم هذا الشعر ما يلي:</u>

أنه شعر مطبوع، لا يعمد إلى الزركشة اللفظية، فهو نتاج الشعور والوجدان.. و (العقاد) يحترس من أخذ تأثير التشبيه والاستعارة والكناية في خَلْق الصورة الشعرية -على إطلاقه- بل لابد لديه من أن يكون ذلك بصفة أساسية وهامة وسيلة لنقل الفكرة والإحساس .. يقول: "فالشاعر يجب ألا يعنى كثيراً بالأوصاف الظاهرة للشيء الذي يصفه، ولكن يجب عليه أن يصف لنا موقع

1- يسير هنا إلى الشاعر الإسلامي حسّان بن ثابت الأنصاري.

هذا الشيء في روْعِنا، وفائدة التشبيه أن يزيدنا إحساساً بصورة الشيء، لا أن يرسمه كما ترسمه الصورة الشمسية"[١].

إلى أن يقول: "وهو وسيلة الي إتمام التعبير عن الوعي والشعور جاءت في الطريق، ولم تكن غاية محتومة، لا فائدة لها إلا أن تقرن شيئاً بشيء مثله، في اللون أو في الشكل أو في الصوت، فهذا فضول وتعثّر، يعُوق عن الغاية، ولا يؤدي إليها. وهذا هو الذي يُولع به النَّظَّامون، ولا تظهر لهم شخصية في تشبيهاتهم"[٢].

وهناك ملحوظة هامة للأستاذ محمد عبدالغني حسن، يقول فيها: "إن الشعاء الذين ارتبطوا بالريف بأوثق الأربطة، كانوا أصدق وصفاً، وأصدق حساً من غيرهم من الشعراء الذين يعبّرون عن تقليد وعن سماع"[٣].

ومن هذا المنطلق، نستطيع ان نقول ان محمود غنيم لم يكن هو الشاعر الوحيد الذي اطال في وصف الفلاح والريف والطبيعة الريفية ، بل هناك الشاعر محمد السيد شحاته الذي تفاني في تصوير الفلاح وبؤسه وتصوير كل مشاهد الطبيعه من حوله .

ان ابيات شاعر البراري في الريف ومظاهره تشتمل علي اشراق المعاني ورقة الشعور ، ودقة الملاحظة والابتكار في الوصف

1- شعراء مصر وبيناتهم في الجيل الماضي، للأستاذ: محمود عباس العقاد، الطبعة الأولى، ١٩٣٧، ص ٧١.
2- المصدر السابق، ص ٧٢ وما بعدها.
3- الفلاح في الأدب العربي، ١٩٦٥، ص ١٣٥.

وموضوعاته مستمدة من الطبيعة العذبة ومناظرها الجميلة وتشيع في شعره روحا تفصح عنها جنبات ألفاظه وصوره

***

اما الشاعر محمود غنيم، الذي ملَّ المقام في قرية كوم حمادة، وهفا فؤاده إلى العمل بالقاهرة؛ لحضور منتدياتها الأدبية، وإنشاد شعره بها، وطبع دواوينه ومسرحياته الشعرية وأعماله النثرية بمطابعها والاحتكاك بكبار الأدباء والشعراء بالعاصمة، ونشر قصائده ومقالاته بصحفها، ومجلاتها..

وكذلك لما صادفه ذات يوم شتوي من عقابيل الوحل الذي تجمّع في الأرض والطرقات، وعاق سيره، وأخره عن ميعاد العمل .. وقد نسي غنيم أن فرح الفلاح بالمطر لا يعدله شيء آخر، وكما يقول المثل الشعبي "إن أمطرت على السلاح -أي المحراث- يا سعد الفلاح" حيث يظفر بري سماوي شامل، يغمرُ الأرض ويبشر بالخير، دون كبير جهد من الفلاح، يبذله لتحقيق ذلك..

هذا، وإن كان غنيم قد دافع عن الفلاح وحقوله في قوله:

أكبرت في الفلاح قوة عزمه
وحسبته -في صبره- أيوباً!

هذا على الرغم من أن الفلاح هو عصب الحياة في مصر، وساعدها القوي الذي يبني ويدير عجلة الإنتاج الزراعي بصفة خاصة، ويحقق النمو والازدهار، ورغم ذلك .. فقد عانى الأمرين في العهود البائدة من ظلم وهوان، قبل أن يصبح مالكاً لأرضه لا أجيراً مهضوم الحق، بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢

إن شاعر البراري (محمد السيد شحاتة) آثر البقاء في الريف، ولم يفكر في ترك المعيشة فيه وهو لا يكفّ عن عزف أرق الأشعار في مشاهد الريف المتبدية في شتى الأنحاء..

ولفرط اندماج وامتزاج محمد السيد شحاتة وتفننه في الصدور عن روائعه وهيامه الشديد بكل ما في الريف من نبات وزهور وطيور .. يخيل لنا من فرط هذا الاندماج والامتزاج أنه يكاد يكون زهرة حية ناطقة من زهور الريف ومعالمه ومشاهده .. فلا يوجد في ديوانه قصيدة واحدة نظمها خارج معاني الريف.

ويعلق انطون الجميل في تقديمه للجزء الاول من ديوانه بين احضان الطبيعه : (كان الريف المصري ينشد شاعرا مطبوعا يتغني بجماله ونعتقد انه وجد " حسانه" في شاعر البراري . وتستكمل لوحاته الشعرية الريفية كل مقوماتها في قصائده التي يصف فيها الطبيعة مثل مناجاة الطير الصادح ، والساقيه ، والبدر ، ووصف الغروب .. الخ)

يمزج الشاعر محمد السيد شحاته في ديوانه بعض اشعاره بالايات القرانيه الكريمه التي يقص الله سبحانه وتعالي فيها نبأ سليمان عليه السلام مع الهدهد فيقول :

خدمت سليمان في ملكه

وبلغته نبـــأ عن سبـــأ

وقلت : احط بما لم تحط

به ، واجترأت أمام المـــلأ

وحملت منه كتابا كريما

فاكـــدت بالـــخبر المـــبتدأ

وبالتأمل في الابيات نلاحظ استمداده بعض المعاني من القران الكريم والتي تؤكد عمق النزعة الدينية عنده بحكم نشأته في بيئة ريفية مؤمنة وتأمله في قدرة الله فيما حوله حتي الطير (الهدهد) والشاعر محمد السيد شحاته في حواره الذي اجراه بين الزهرة والغادة يلجأ الي الالفاظ الرقيقة المعبرة عن الجمال الكامن في الزهرة بموسيقية عذبة رنانة خاصة في تبادل الحديث بينهما ، وتمني كلا منهما ان تكون هي الاخري

اما الشاعر محمود غنيم فقد تفوق في الصورة الرائعة التي رسمها للبط العائم فوق صفحة النهر فنجد لوحته طبيعية مكتملة العناصر وقد استخدم فيها الفاظ رشيقة عذبة خفيفة النطق ذات تأثير رائع علي السامع ويترك الخيال يعمل في ذهن القارئ عندما يصور البط شامخ الجيد مسرعا في تتابع حركي منتظم وكأنه اسطول سلم يرسم خطوط في الماء وتسلس له القافية حتي اخر قصيدته ، ومعظم اشعاره عن الريف كانت تعبيرتها صادقة وعباراتها سلسة ، وصورة الدافئة الحية الناطقة

ومهما يكن من أمر، فسيظل الريف وأهله مثابة حبنا وتقديرنا، ولهفتنا لقضاء الأعياد وشم النسيم بصفة خاصة بين ربوعه لننشد الصفاء والتخفف من وطأة الحياة الصاخبة، التي لا تكف عن العمل، ونفرّ إلى الريف، خاصة في فصل الصيف وقيظه الشديد لنلقى الراحة والسكينة بين أحضان الريف المرحبة الحانية.

وصفوة القول نرجو أن نكون قد وقينا بعض حق الريف وأهله علينا، بما قدمناه في هذا البحث من إشادة وتنويه، وما توفيقي إلا بالله وله الحمد في الأولى والآخرة.

****

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: الدوريـــات:

- مجلة الهلال، العدد ٢٨٨، ١٩٧٤م.
- مجلة أبوللو، عدد يونيو، السنة ١٩٣٤.
- مجلة الرسالة، عدد فبراير، العدد الخامس عشر، السنة ١٩٣٧.
- مجلة الرسالة، عدد سبتمبر، السنة ١٩٣٧.
- مجلة الرسالة ، عدد ١١١٨ / يونيو سنه ١٩٦٥ م السنة الثانية والعشرون
- مجلة الشعر، العدد التاسع، السنة ١٩٧٨.
- محاضرات في الشعر المصري، للدكتور/ محمد مندور، الحلقة الثالثة، طبعة ١٩٥٨.
- مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج، العدد الرابع عشر، ١٩٩٩م.

ثانيـــاً: الدواويـــن:

- ديوان الشاعر أحمد الكاشف.
- ديـوان الشـوقيات للشـاعر أحمـد شـوقي، طـبعة دار الجـيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، تحقيق: د. إميل أ. كبا.
- ديوان لكل زهرة عبير، للشاعر المهجري شفيق المعلوف.
- ديـوان هكذا أغنـي، للشـاعر محمـود حسـن إسـماعيل، الأعمـال الكاملة، طبعة دار سعاد الصباح سنة ١٩٩٣م.
- ديـوان أغانـي الكـوخ، الأعمال انكامنة، المجلد الأول، طبعة دار سعاد الصباح سنة ١٩٩٣م.
- ديـوان جميل صدقي الزهاوي، رتّبه محمد يوسف نجم، طبعة مصر للطباعة، ١٩٥٥م.
- الديوان للعقاد والمازني.
- ديوان الشاعر محمود غنيم، الأعمال الكاملة، طبعة ١٩٩٣م.
- ديـوان بيـن أحضـان الطبـيعة / جـزأن للشـاعر محمـد السـيد شحاتة، "شاعر البراري"، طبعة ١٩٤٢ و ١٩٤٨ .

ثالثـــاً: الكـــتب:

- العمدة لابن رشيق، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٢.
- شعراء معاصرون للأستاذ أحمد حافظ، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٥م.
- الشعر العربي المعاصر، د. الطاهر أحمد مكي، الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٦م.
- دموع على الشاعر محمود غنيم، عرض وتقديم: محمد أحمد سلامة، طبعة دار الهنا (ب.ت).
- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م.
- شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، الطبعة الثانية، دار المعارف (ب.ت).
- أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد بدوي، دار نهضة مصر، (ب.ت).
- تاريخ مصر بين المنهج العلمي والصراع الحربي، الطبعة الأولى، ١٩٣٧.

- الفلاح في الأدب العربي د. محمد عبدالغني حسن، الطبعة الأولى، سلسلة الكتب الثقافية، ١٩٦٥.
- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للأستاذ/ العقاد، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٧م، مكتبة النهضة.
- دراسات أدبية للشاعرة جليلة رضا، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٧.
- البناء الفني للقصيدة الدبية في الشعر، د. علي علي صبح، طبعة المكتبة الأزهرية بالقاهرة، ١٩٦٦م.